Received :8 / 10 / 2024 Accepted: 17 / 10 / 2024 Published : 9 / 1 / 2025

المَقَامَةُ الصَّعدِيَّةُ للحَريري (دراسة سيميائية)

م.د. وسام محمد عبود الربيعي

waboud@uowasit.edu.iq

جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الإنسانية

الخلاصة:

مما يحسن التنبيه إليه أنَّ معظم كتب التراث العربي النثري ولا سيما المقامات فيها ما فيها من الكنوز الأدبية التي تتيح للباحث إمكان دراستها وفق النظريات الحديثة التي تكشف _ في الأغلب_ وجها آخر للنص الأدبي يُبدي لنا مكامن الإبداع ويُظهر لنا مدى رجاحة العقل العربي وحصافة الأدباء الذين تميزوا عن نظرائهم وخلّفوا نصوصا سامقات كَمَثَل قلائد العِقْيان التي تزيّن الأعناق في كل زمان، وكَبِئْرٍ طيبة الماء كلما ألقى الظمآنُ دلوَهُ بها عاد بما ينقع غليله ويبلّ صداه.

كلمات مفتاحية: المقامة, الحريري, السيمياء, المقامات, النثر العباسي.

Al-Hariri’s Sa’diyah Maqama (a semiotic study)

Asst. Prof. Wisam Muhammad Abboud Al-Rubaiee (Ph.D.)

Wasit University , College of Education for Human Sciences

ABSTRACT:

It is worth noting that most of the books of Arab prose heritage, especially the Maqamat, contain literary treasures that allow the researcher to study them according to modern theories that reveal - mostly - another aspect of the literary text that shows us the sources of creativity and brilliance and shows us the extent of the superiority of the Arab mind and the intelligence and acumen of the writers who distinguished themselves from their peers and wrote sublime texts like the gold necklaces that adorn necks in every age, and like a well of good water, whenever a thirsty person throws his bucket into it, he returns with what quenches his thirst.

Keywords: Maqama, Al-Hariri, semiotics, Maqamat, Abbasid prose.

التمهيد

إنَّ فن المقامات من الفنون العربية الخالدة التي كُتبت لغاية وقصد؛ وكانت غاياتها وعظية في الأغلب, على الرغم مما فيها من طرف ومُلح ودعابة وتماجن, ولعل " أظهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع هو فن المقامات, وهي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية, أو فلسفية, أو خطرة وجدانية, أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون " (مبارك, (د . ت), 1 / 197 _ 198), إبعاداً للسأم والملل؛ إذ إنها كُتبت لغاية تعليم الناشئة وإمتاعهم في الوقت نفسه, وعلى الرغم من ذلك لم تكتب المقامة لفئة عمرية محددة؛ بل إنها شغلت ألباب الأدباء ونالت استحسانهم وإعجابهم, فانبرى الكثير منهم إلى النسج على منوالها ومحاكاة أسلوبها ونظامها, وأول من حاكى مقامات بديع الزمان الهمذاني (ت: 398 هـ) هو أبو القاسم محمد بن علي الحريري البصري (ت: 516 هـ), والحق أنَّ " الحريري هو الذي خلق من المقامات فناً جديداً في الأدب العربي, وعند الرجوع إلى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب تلامذة الحريري لا تلامذة بديع الزمان؛ فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف, ولم يأنس منهم إلى فطرته إلا القليل " (فرّوخ, 2000م, 54), وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على ما لمقامات الحريري من أسلوب أدبي سامق أستطاع أن يسلب ألباب

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

الأدباء ويحضهم على اتباع خطاه واقتفاء أثره؛ ونتيجة لذلك عمدنا إلى دراسة إحدى مقاماته دراسة سيميائية, ووقع اختيارنا على المقامة الصَّعدية لما فيها من علامات سيميائية ومَزيَّات تتناسب والمنهج السيميائي .

يجمل بنا أن نُجمل القول في التعريف بالسيميائية الأدبية والمنهج السيميائي, الذي مؤدّاه أنه " علم يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات, أنظمة الإشارات ... وهذا التحديد يجعل اللغة جزءا من السيمياء ... وكان دي سوسير أول من حاول تحديد السيمياء بقوله: إنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية "(غيرو, 1984م, 5), فالكلمة أحيانا تمثل علامة تختزل الكثير من الدلالات التي تكشف لنا عن مكامن المعاني ومقاصد الأديب وغائية نظمه لهذه الكلمة دون غيرها أو اختياره لهذا اللون دون سواه , فالسيمياء: " هي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها, وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام دلالة, وهكذا فإنّ السيميولوجيا هي العلم الذي يدرس بنية الإشارة وعلائقها في هذا الكون ويدرس بالتالي توزعها ووظائفها, الداخلية والخارجية " (غيرو, 1998م, 9), فكأن هذا العلم السامق صياد حاذق يعرف تحركات طريدته قبل أن تقوم بها؛ نتيجة لما لاحظه من علامات استشرفت له ما ستفعله في المستقبل القريب, فضلا عن أن السيميائية تدرس العلامات وأنساقها " اللسانية وغير اللسانية, زد على ذلك أهميتها في تحقيق التواصل (التبادل المعلوماتي) " (غارمادي, 1990, 21), كما أن من ينعم النظر ويتفكر في الدنيا وسجايا الناس يرى أن لكل شخصية لغتها الخاصة في الحياة, فهناك شخصيات تستعمل كلمات بسيطة وهناك على العكس منها, وهناك شخصيات مترددة وهناك حازمة فاللغة تتحدث فضلا عن ذلك عن مكان وزمان وشخصيات وأفعال كلها تشكل علامات سيميائية, قصد السارد إلى اختيارها قصداً, فضلا عن ذلك هناك ما يسمى شبكة العلاقات وما النوع الذي يربط العلاقات ببعضها؛ علاقة تشابه أو اختلاف, أو اتصال أو انفصال, فالشخصيات ليست منفصلة عن بعضها بل تتفاعل بعضها مع بعض, وهذا ما أكده غريماس (ت:1413 هـ) في نظرياته السيميائية (للاستزادة يُنظر: لحمداني, 1991 م, 31_ 37), وليس هذا وحسب وإنما هناك ما يضارع عوامل غريماس من حيث الأهمية؛ ألا وهو المربع السيميائي (يُنظر: تشاندلر, 2008م, 186_ 188), ونتيجة لذلك سنقوم بدراسة المقامة الصَّعدية دراسة سيميائية, ابتداءً بشبكة العلاقات وانتهاءً بالمربع السيميائي.

المقامة الصَّعدية (دراسة سيميائية)

من الجدير بالذكر أنّ شخصية الحارث بن هَمَّام لا تُمثل فراغاً دلالياً أسوة بالشخصيات الأخرى؛ إذ إن وظيفتها معروفة عندنا, ألا وهي رواية الأحداث والبحث عن أبي زيد السَّروجي, أما الشخصيات الأخر فتمثل فراغاً دلاليا في الوهلة الأولى يمتلئ تدريجيا كلما تقدم السارد في تفصيله في المعلومات وسرده للأحداث, فاستمع لقول الحارث : " سألتُ نَحاريرَ الرّواةِ. عمّنْ تحْويهِ منَ السَّراةِ. ومعادِنِ الخيْراتِ. لأتّخِذَهُ جَذْوَةً في الظُلُماتِ. ونَجدَةً في الظُّلاماتِ. فنُعِتَ لي قاضٍ بها رحيبُ الباعِ. خَصيبُ الرِّباعِ. تَميمِيُّ النّسَبِ والطِّباعِ. فلمْ أزَلْ أتقرَّبُ إليْهِ بالإلْمامِ. وأتَنَفّقُ عليهِ بالإجْمامِ. حتى صِرْتُ صَدى صَوْتِهِ. وسَلْمانَ بيتِهِ. وكنتُ معَ اشْتِيارِ شَهْدِهِ. وانتِشاقِ رَنْدِهِ. أشْهَدُ مَشاجِرَ الخُصومِ. وأسفِرُ بينَ المَعصومِ منهُمْ والموْصومِ " (الحريري, 1978م, 302), فالقاضي في الوهلة الأولى مثل بياضاً دلالياً, ومن ثَمَّ اتضحت لنا بعض صفاته ومكانته بين قومه وعرفنا نسبه؛ فتبيّن لنا أنَّ العلاقة بينه وبين الحارث علاقة اتصال, وفق مصطلح غريماس, فالحارث مثَّلَ (الذات) التي ترغب في (موضوع)←كسب وُد القاضي, والعلاقة بينهم علاقة اتصالية, بحسب البرنامج السردي لغريماس:

(PN)(FE)=(SvO)=(S^O)

ونتيجة لذلك فإن ملفوظ الإنجاز أدى إلى أن تكون العلاقة علاقة اتصالية, وفضلا عن ذلك فإن كلمة (سلمان بيته) كانت علامة سيميائية على العلاقة الوطيدة بينه وبين القاضي؛ إذ شبه علاقتهما بعلاقة سلمان المحمدي (33 هـ) برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (ت 11 هـ) .

وكلما تقدمنا في قراءة النص وجدنا الكثير من العلامات السيميائية والبرامج السردية والمربعات السيميائية, ولا أدل على ذلك من قول الحارث: " فبَينَما القاضي جالِسٌ للإسْجالِ. في يومِ المحْفِلِ والاحتِفالِ. إذ دخَلَ شيخٌ بالي الرّياشِ. بادِي الارتِعاشِ. فتبصّرَ الحفْلَ تبصُّرَ نقّادٍ. ثم زعَمَ أنّ لهُ خصْماً غيرَ مُنقادٍ. فلمْ يكُنْ إلا كضَوْءِ شَرارَةٍ. أو وحْيِ إشارَةٍ. حتى أُحضِرَ غُلامٌ. كأنّهُ ضِرْغامٌ. فقال الشيخُ: أيّدَ اللهُ القاضيَ. وعصَمَهُ منَ التّغاضي. إنّ ابْني هذا كالقَلَمِ الرّديّ. والسيفِ الصّدِيّ. يجهَلُ أوْصافَ الإنصافِ. ويرْضَعُ أخلافَ الخِلافِ. إنْ أقدَمتُ أحجَمَ. وإذا أعرَبْتُ أعجَمَ. وإنْ أذْكَيْتُ أخْمَدَ. ومتى شوَيتُ رمّدَ. معَ أنّي كفَلْتُهُ مُذْ دَبّ. الى أن شبّ. وكنتُ لهُ

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

أَلْطَفَ مَنْ ربّى ورَبَّ. فأكْبَرَ القاضي ما شَكا إليْهِ. وأطْرَفَ بهِ منْ حَوالَيْهِ. ثمّ قال: أشْهَدُ أنّ العُقوقَ أحدُ الثُّكْلَيْنِ. ولَرُبّ عُقْمٍ أقَرُّ للعَينِ " (الحريري, 1978م, 302_ 303).

ولعل من البديهي أن نقول: إنَّ يوم الحفل والاحتفال مَثّلَ فضاءً مكانيا يوحي بالسرور والارتياح, غير أن حضور الشيخ وشكيته للقاضي غيرا من جمالية الحدث ونقلاه من اللهو إلى الجد, فضلا عن التقابل الثنائي بين ضعف الشيخ (بادي الارتعاش) وشدة الغلام (كأنه ضرغام), أوحى لنا بأن القاضي سيبدي تعاطفه مع الشيخ (الوالد), الذي كان هو وابنه (لكسيمان), امتلكا (سيما) مشتركا فوق محور التجايل في علاقة الأبوة والبنوة[1], وفضلا عن ذلك نلاحظ أن الراوي يتحفنا بحشد من التقابلات الثنائية قائلا: " إنْ أقدَمتُ أحجَمَ. وإذا أعرَبْتُ أعجَمَ. وإنْ أذْكَيْتُ أخْمَدَ. ومتى شوَيتُ رمّدَ ", ونحن نعلم أن في التقابل الثنائي " إذا كان أحد العنصرين معطى فالثاني موحى به, وإن لم يكن حاضراً, لا يقابل فكرة السواد سوى فكرة البياض, ولا يقابل فكرة الجمال سوى فكرة البشاعة, وفكرة الواسع سوى الضيق, وفكرة المُغلق سوى المفتوح ... وما إلى ذلك, فعنصرا التقابل مرتبطان بشدة, لا مناص من أن يستدعي ظهور أحدهما العنصر الآخر" (تشاندلر, 2008م, 163), ويبدو لنا أن سرد الشيخ لهذه التقابلات؛ كان رغبة في كسب وُد القاضي واستمالته إلى جانبه, وخير دليل على ذلك قول القاضي: " أشْهَدُ أنّ العُقوقَ أحدُ الثُّكْلَيْنِ ", فالشيخ وفق نظرية غريماس للعوامل؛ يمثل: ذات ترغب في موضوع, ألا وهو إنصاف القاضي له والحكم لصالحه, والقاضي هنا مثّل عاملاً مساعدا للذات في حين كان الغلام معارضا له, ونتيجة لقوة شوكة القاضي وسلطانه كانت العلاقة علاقة اتصال بين الذات والموضوع, وسنوضح ذلك بالمخطط الآتي :

علاقة رغبة

الشيخ (ذات) ⟵ الانتصاف (موضوع)

علاقة صراع

القاضي (مُساعد) ⟷ الغلام (مُعارض)

علاقة تواصل

الشكوى (مُرسَل) ⟷ القاضي (مُرسَل إليه)

فتمخض عن ملفوظ الإنجاز أن تكون العلاقة علاقة اتصال , وفق البرنامج السردي :

(PN)(FE)=(SvO)=(S^O)

وليس هذا وحسب وإنما يمكننا استخلاص المربع السيميائي بتحديد العلاقات بين الوحدات الدلالية الكامنة في البنية السردية, ومن ذلك نجد الوحدة الدلالية (ظلم) سيم يتضمن ويحتوي على سيم آخر (لا ظلم), من قبل الشيخ, بمعنى طلب الإنصاف من القاضي, كوحدة دلالية تتضمن سيم (العدل), ومنه يمكن تحديد المربع السيميائي الآتي :

تضاد

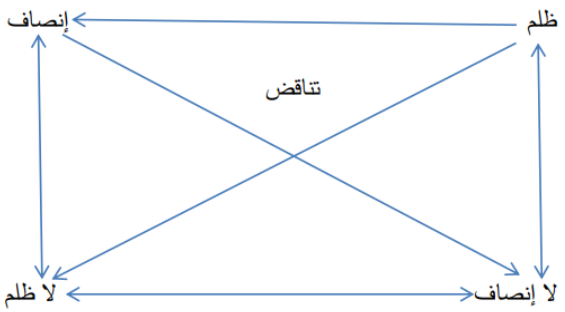

تحت التضاد

([1]) من الجدير بالذكر أنَّ السيم هو: وحدة معنوية صغرى, أما اللكسيم: فهو وحدة معجمية تركيبية تتمخض علاقتها مع وحدة معجمية أخرى عن سيم مشترك. يُنظر: كورتيس, جوزيف, مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية, ترجمة: د. جمال حضري, ط1, منشورات الاختلاف, الجزائر _ الجزائر, 2007م, 73_ 74.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

ومن هذه الوحدات الدلالية (الظلم والإنصاف) تُكشف لنا هذه الثنائية بين الفكرتين .

والحق أن موقف القاضي كان يتراوح بين السلب والإيجاب فيما يخص الشيخ والغلام؛ إذ إن دفاع الغلام عن نفسه غير _ إلى حد ما _ من وجهة نظر القاضي, فاستمع لقول الحارث: " فقالَ الغُلامُ. وقد أمعَضَهُ هذا الكلامُ: والذي نصَبَ القُضاةَ للعدْلِ. وملّكَهُمْ أعِنّةَ الفضْلِ والفَصْلِ. إنّه ما دَعا قَطُّ إلا أمّنْتُ. ولا ادّعى إلا آمَنْتُ. ولا لَبّى إلا أحْرَمْتُ. ولا أوْرَى إلا أضْرَمْتُ. بَيْدَ أنهُ كمَنْ يبْغي بيْضَ الأنُوقِ. ويطْلُبُ الطّيَرانَ منَ النّوقِ! فقالَ لهُ القاضي: وبِمَ أعْنَتَكَ. وامتَحَنَ طاعتَكَ؟ قال: إنهُ مُذْ صَفِرَ منَ المالِ. ومُنِيَ بالإمْحالِ. يسومُني أنْ أتلَمّظَ بالسّؤالِ. وأستَمْطِرَ سُحْبَ النّوالِ. ليَفيضَ شِربُهُ الذي غاضَ. ويُنْجَبرَ منْ حالِهِ ما انْهاضَ. وقد كانَ حينَ أخذَني بالدّرْسِ. وعلّمَني أدَبَ النّفْسِ. أشْرَبَ قلْبي أنّ الحِرْصَ مَتعَبَةٌ. والطّمَعَ معْتَبَةٌ. والشَّرَهُ مَتْخَمَةٌ. والمسألَةَ مَلأمَةٌ. ثمّ أنشدَني منْ فلْقِ فيهِ. ونحْتِ قَوافيهِ:

إرْضَ بأدنى العيشِ واشْكُرْ عليْهِ ... شُكْرَ منِ القُلُّ كثيرٌ لدَيْهْ
وجانِبِ الحِرصَ الذي لم يزَلْ ... يحُطُّ قَدْرَ المُتَراقي إلَيْهْ
وحامِ عنْ عِرضِكَ واستَبْقِهِ ... كما يُحامي اللّيْثُ عنْ لِبْدتَيْهْ
واصْبِرْ على ما نابَ منْ فاقَةٍ ... صبْرَ أولي العزْمِ وأغمِضْ عليْهْ
ولا تُرِقْ ماءَ المُحَيّا ولوْ ... خوّلَكَ المسْؤولُ ما في يدَيْهْ
فالحُرُّ مَنْ إنْ قَذِيَتْ عينُهُ ... أخْفى قَذى جَفنَيْهِ عن ناظِرَيْهْ

ومَنْ إذا أخْلَقَ ديباجُهُ ... لمْ يرَ أنْ يُخْلِقَ ديباجَتَيْهْ " (الحريري, 1978م, 303 _ 304).

إن أسلوب الاستثناء هنا؛ أدى علامة سيميائية تكشف لنا والقاضي مدى إخلاص الغلام وطاعته لأبيه وبره به, وفضلا عن ذلك كان للكناية التي تدل على طلب المُحال منه؛ فعل كبير في تعزيز موقف الغلام وكسب وُد القاضي, وليس هذا وحسب؛ وإنَّما عزز حضوره بأفعال سيميائية منها "يسومُني أنْ أتلَمّظَ بالسّؤالِ. وأستَمْطِرَ سُحْبَ النّوالِ... وقد كانَ حينَ أخذَني بالدّرْسِ. وعلّمَني أدَبَ النّفْسِ. أشْرَبَ قلْبي أنّ الحِرْصَ مَتعَبَةٌ. والطّمَعَ معْتَبَةٌ. والشَّرَهُ مَتْخَمَةٌ. والمسألَةَ مَلأمَةٌ " , فلا يخفى ما في الفعل (يسومني) التي معناها: يوردني, يُذيقني, من علامة سيميائية تدل على الذل والانكسار, زد على ذلك الفعل (أتلمظ), الذي ورد في لسان العرب؛ " لمظ: التَّلمُّظ والتمطُّق: التذَوُّقُ. واللمْظ والتلمُّظُ: الأخذ بِاللِّسَانِ مَا يَبْقى فِي الْفَمِ بَعْدَ الأكل " (ابن منظور, 1994م, 7/ 461), ولا يخفى ما في ذلك من علامة سيميائية, توحي بالذل والاستخذاء, وليس هذا وحسب, وإنما يعزز ذلك باستمطاره سحب النوال, وهذا الاستمطار فيه ما فيه من تضرع ودعاء وإذلال إن كان الدعاء لغير الله, ونرى السارد غير مكتفٍ بهذا الحد بل, يعضده بأسلوب الازدواج, ومن ثم يشد أزره بأبيات من نظم أبيه تعزز موقفه, وتجعل الحق حليفا له, وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن للأفعال والتراكيب اللغوية تأثير كبير في المتلقي, وإن كان أعلى رُتبة من القائل؛ " فليس النص مجرّد أداة تواصل, بل أداة تضع الأنظمة الدلالية الموجودة قبلها محلّ نقاش, وغالبا ما تجددها " (إيكو, 2005م, 66)؛ ونتيجة لذلك فإنَّ النص الذي ورد في ثناياه كلام الغلام, قد أدى إلى علاقة اتصالية بين الذات والموضوع في ضوء نظرية غريماس؛ وسنجمل القول فيها:

علاقة رغبة

الغلام هنا (ذات) ⟵ انتصاف القاضي (موضوع)

علاقة صراع

كل ما وظفه الغلام من أفعال وأساليب (مساعِد) ⟵ الشيخ (مُعارِض)

علاقة تواصل

كلام الغلام (مُرسَل) ⟵ القاضي (مُرسَل إليه)

ملفوظ الإنجاز أدى إلى أن تكون العلاقة في البرنامج السردي علاقة اتصال:

(PN)(FE)=(SvO)=(S^O)

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

ومما يحسن الإشارة إليه أننا نستطيع أن نطبق المربع السيميائي على ما ذكرناه آنفا؛ فالمربع السيميائي هنا يمثل لنا ثنائية (الحق والباطل), التي تعد البنية الأساسية للدلالة, في البعد المعرفي للبرنامج السردي, للممثل (الغلام) في بحثه عن (الحق), وكان تجسيد المربع السيميائي هنا بحسب اعتقاد الغلام, كالآتي:

تضاد

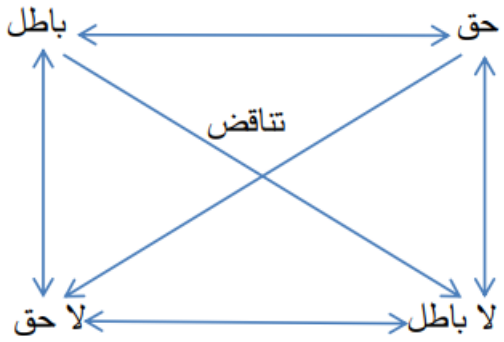

تحت التضاد

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستخلص من السيم ما يقابله ويتضمنه من سيمات تشكل شبكة علاقات بين الوحدات الدلالية في النص السردي, ويعد هذا المربع تمثيلا بصرياً لشبكة العلاقات بين الوحدات الدلالية الكامنة في أغوار النص السردي .

ويجدر بنا أن نقول: إن هذه المقامة حبلى بالعلامات السيميائية, فدونكَ قول الحارث بن هَمَّام: " فعبَسَ الشيخُ واكفهَرّ . وانْدرَأ على ابنِهِ وهرّ . وقال لهُ: صَهْ يا عُقَقُ. يا مَنْ هوَ الشّجَى والشَّرَقُ! ويْكَ أتُعَلِّمُ أمّكَ البِضاعَ. وظِئْرَكَ الإرْضاعَ ؟ لقدْ تحكَّكَتِ العقْرَبُ بالأفعى . واستَنّتِ الفِصالُ حتى القَرْعى! ثمّ كأنّهُ ندِمَ على ما فرَطَ منْ فيهِ. وحدَتْهُ المِقَّةُ على تَلافِيهِ. فرَنا إلَيْهِ بعينِ عاطِفٍ. وخفضَ لهُ جناحَ مُلاطِفٍ. وقال لهُ: ويْكَ يا بُنيّ إنّ مَنْ أُمِرَ بالقَناعَةِ. وزُجِرَ عنِ الضّراعَةِ. هُمْ أرْبابُ البِضاعَةِ. وأولُو المَكسَبَةِ بالصّناعَةِ. فأمّا ذَوو الضّروراتِ. فقدِ استُثْنيَ بهِمْ في المَحْظوراتِ. وهبْكَ جهِلْتُ هذا التّأويلَ. ولمْ يبلُغْكَ ما قيلَ. ألسْتَ الذي عارَضَ أباهُ. في ما قالَ وما حاباهُ:

لا تـقْـعُـدَنّ عـلـى ضُـرٍّ ومسْـغَبَةٍ ... لـكـيْ يُـقالَ عزيـزُ النّفسِ مُصطَبِرُ
وانظُـرْ بـعـينِكَ هل أرضٌ مُعطّلةٌ ... مـنَ الـنّبـاتِ كأرضٍ حفّها الشّجَرُ
فـعَـدِّ عـمّا تُـشيرُ الأغْـبِياءُ بـهِ ... فـأيُّ فـضْـلٍ لـعـودٍ مـا لـهُ ثمَرُ
وارْحَلْ رِكابَكَ عن رَبْعٍ ظمئتَ بـه ... الى الجَنابِ الذي يَهمي بهِ المطَرُ
واستَنزِلِ الرّيَّ من دَرّ السّحابِ فإنْ ... بُـلّـتْ يَـداكَ بـهِ فـلـيَهنِكَ الظّفَرُ
وإنْ رُدِدتَ فـمـا فـي الـرّدّ مَـنقَصَةٌ ... عـلـيكَ قد رُدّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قال: فلما أنْ رأى القاضي تَنافيَ قولِ الفتى وفِعلِهِ. وتحلّيَهُ بما ليسَ منْ أهلِهِ. نظَرَ إليْهِ بعَينٍ غَضْبى. وقال: أتَميميّاً مرّةً وقَيسِيّاً أخرى؟ أُفٍّ لمَنْ ينقُضُ ما يَقولُ. ويتلوّنُ كما تتلوّنُ الغولُ! " (الحريري, 1978م, 305_ 306).

ولا جَرَمَ أنَّ عبوس الشيخ واكفهراره, فعلان أدّيا علامة سيميائية جسدت جزءا من شبكة العلاقات المبنية على التقابلات الثنائية في هذه المقامة, ومن ثَمَّ أعقب الشيخ هذين الفعلين, بنعوت سمجة أدت مؤداها السيميائي, وكونت مفهوما سيميائياً بيّن للقاضي مدى سوء هذا الغلام ولؤمه؛ " فإذا كانت السيمياء نقلاً لشفرة, فهي أيضاً أكثر من ذلك, فباعتبارها عملية وصف يجب أن تدقق مستوى أو مستويات التحليل التي تريد أنْ تتموقع فيها " (كورتيس, 2007م, 57)؛ ولِذا كان للأوصاف التي أطلقها الشيخ على الغلام فعل كبير في توبيخه وبيان سوء عمله وإيضاح ماهيته للقاضي, ونتيجة لامتلاك الشيخ ناصية البيان استطاع أن يغير ميول القاضي؛ عن طريق ما يتحفه به من علامات سيميائية وأفعال كلامية وتراكيب خطابية, جعلت له قصب السبق في صراعه الكلامي وَغلامه؛ فعلى الرغم من تخفيف شدة وطأة كلماته تجاه ولده, استطاع أن يبزَّه ويثل عرش حجته, من خلال ما أنشده من أبيات شعرية نسبها إليه, وادعى أنه عارضه فيها, مما حدا بالقاضي إلى أن يوبخ الغلام, ويوقر الشيخ.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

ولعل من الطريف بمكان أن تتحول العلاقة إلى علاقة اتصالية بين الشيخ ورضا القاضي, ويضرب القاضي صفحاً عن رأيه السابق في أحقية الغلام بالعدل والإنصاف؛ مما يجعل العلاقة بين القاضي والشيخ علاقة اتصالية تارة أخرى, وفق نظرية غريماس:

علاقة رغبة

وتبعا لذلك؛ يصبح الشيخ (ذات)⟵ رضا القاضي (موضوع)

علاقة صراع

ويكون كلام الشيخ وبلاغته (مُساعد)⟵ وصمت الغلام وإصغاء القاضي (مُعارِض)

علاقة تواصل

ويصبح كلام الشيخ البليغ (مُرسَل)⟵ والقاضي والغلام (مُرسَل إليه)

وَلِذا؛ فإن ملفوظ الانجاز الذي رسمت خارطته كلمات الشيخ الأنيقة الديباجة, وتمكنه من ناصية البيان والفصاحة, جعل العلاقة بين الشيخ ورضا القاضي علاقة اتصالية على منهاج البرنامج السردي:

(PN)(FE)=(SvO)=(S^O)

ونستطيع أن نُظهر التقابلات ونقاط التقاطع في شبكة العلاقات بين الشخصيات, بوساطة ما نجده في الوحدة الدلالية (تغير ميول القاضي نحو الشيخ), وبحث الشيخ عن رضاه, ونيل الشيخ وطره وأربه, وهذا يُمكننا من تحديد المربع السيميائي, كالآتي:

تضاد

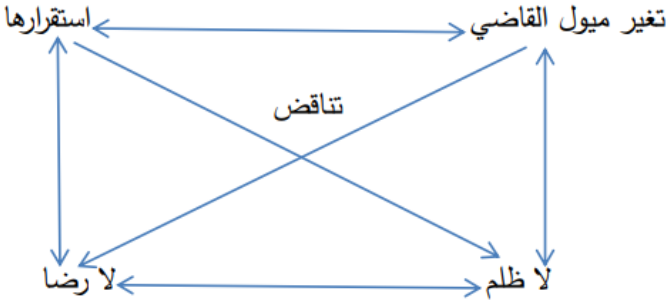

تحت التضاد

تكشف لنا هذه الثنائية التناقض بين فكرة (تغير ميول القاضي), و(استقرارها), وما يتمخض عن ذلك من ظلم أو رضا, وليس هذا وحسب؛ وإنما تكرار هذه التقابلات الثنائية لم يكن أمرا اعتباطيا؛ إذ " إنَّ كل تكرار لوحدات ما يُعد أمراً هاماً, ولكن يمكن أن تكون له وظيفة أو وظائف متغيرة؛ _ وظيفة تأجيلية (تأخير حل الحبكة)؛ وظيفة تضخيمية ديكورية (تأكيد أجزاء الملفوظ) " (هامون, 2013م, 84).

ويبدو لنا أن تكرار الوحدات الدلالية والتقابلات في هذه المقامة؛ قد جمع الحسنيين, وأدى الوظيفتين الآنفتي الذكر .

ولعل من البديهي أنْ نقول: إن التعبير البلاغي والعلامات السيميائية التي جادت بها قريحة الغلام استطاعت أن تجعل القاضي _ إلى حد ما _ في موقف مُلتبس بين الرضى عنه والسخط منه, فاستمع لقول الحارث: " فقال الغُلامُ: والذي جعلَكَ مِفْتاحاً للحَقّ. وفتّاحاً بينَ الخَلْقِ. لقدْ أُنسيتُ مُذْ أُسِيتُ. وصَدِئَ ذِهْني مُذْ صَديتُ. على أنّهُ أينَ البابُ الفُتُحُ. والعَطاءُ السُرُحُ؟ وهلْ بقيَ منْ يتبرّعُ باللُّهى. وإذا استُطْعِمَ يقولُ ها؟ فقالَ لهُ القاضي: مَهْ! فمَعَ الخَواطئِ سهْمٌ صائِبٌ. وما كُلُّ برْقٍ خالِبٌ. فميّزِ البُروقَ إذا شِمْتَ. ولا تشْهَدْ إلا بما علِمْتَ " (الحريري, 1978م, 306), فكان موقف القاضي من الغلام مُلتبسا بين الاشفاق عليه والامتعاض منه, ولم تكن العلاقة بينهما اتصالية أو انفصالية , نظراً إلى عدم تمكن الغلام من نيل رضا القاضي وإقناعه بما يملكه من حجج لم يأخذها القاضي بعين الاعتبار, وهذه الأمثلة " تذكرنا فقط بأن مُشكل المعنى الذي تريد السيميائية الاهتمام به, يتجاوز كثيراً مُشكل الاتصال الذي تتضمنه, ولكنه ليس إلا شكلاً خاصاً منها " (كورتيس, 2007م, 56), فالاتصال أو الانفصال الضمنيين هنا, قد أديا معنى جماليا تشويقياً.

ويجدر بنا القول: إن معرفة الحارث بن همام بحقيقة الشيخ وابنه الذين خدعا القاضي وفازا بنواله وجزيل عطائه, قد غيرت في شبكة العلاقات الثنائية؛ إذ يقول الراوي: " فحِرْتُ بينَ تعْريفِ الشيخِ وتنْكيرِهِ. الى أنِ احْرَوْرَفَ لمَسيرِهِ. فناجَيْتُ النَّفْسَ باتّباعِهِ. ولوْ الى

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

رِباعِهِ. لعَلّي أظهَرُ على أسرارِهِ. وأعْرِفُ شجرَةَ نارِهِ ... ولم يزَلْ يخْطو وأعْتَقِبُ. ويبْعُدُ وأقتَرِبُ. إلى أن تَراءى الشّخْصانِ. وحقّ التّعارُفُ على الخُلْصانِ. فأبْدى حينَئِذٍ الاهْتِشاشَ. ورفَعَ الارتِعاشَ. وقال: منْ كاذَبَ أخاهُ فلا عاشَ! فعرَفْتُ عندَ ذلِكَ أنهُ السَّروجيُّ بِلا مَحالَةٍ. ولا حُؤولِ حالَةٍ. فأسرَعْتُ إليْهِ لأصافِحَهُ. وأستَعْرِفَ سانِحَهُ وبارِحَهُ " (الحريري, 1978م, 308), فالشيخ الضعيف هنا, لم يكن كما نعته الراوي في مطلع المقامة بل كان رجلا مُحتالا, والعلاقة بينه وابنه لم تكن علاقة صراع البتة, بل كانت علاقة اتفاق وتواصل, فكانا كلاهما (الذات) وكان مال القاضي وعطاؤه (الموضوع), وكان حسن بيانهما وبلاغتهما التي تستعبد الأسماع (مساعدان), وكان اقتناع القاضي وتأثره بسوء حالهما (معارض), وكان صراعهما المُختَلَق (مُرسل), وكان استعطاف القاضي (مُرسل إليه), والحق أنَّ " بإمكان أساليب أخرى ثانوية ومختلفة أن تقوم بتوزيع شبكة مُحكمة جداً: فشخصية ما يمكنها أن تكون بطلاً دائماً, أو تكون كذلك على فترات, كما يُمكنها أن تجمع بين مجموعة كبيرة من التحديدات العاملية, (قد يكون البطل مثلاً ذات + مُستفيد) ولا تقوم إلا بدور عاملي واحد, كما يُمكن أن تقوم بأدوار مُختلفة ولكن بشكل تناوبي (تكون أحياناً ذات وأحياناً موضوع) " (هامون, 2013م, 78), وتبعا لذلك كانت شخصية السَّروجي وابنه (ذات + مُستفيد), وكانت شخصية القاضي منهاجا يؤدي إلى الموضوع الذي كان فيما سبق رضاه وإنصافه المطلوب من الأب وابنه, ومن ثَمَّ تبين فيما مضى أن الموضوع الأساس وغاية أرب الوالد والولد هو الظفر بهبات القاضي وسيب جوده .

ومما يحسن التنبيه إليه أنَّ مقامات الحريري بصورة عامة مادة ثَرَّة وبحر لغوي وبلاغي زاخر, يستطيع أن ينهل منه رواد الفصاحة والأدب, فضلا عن اتسامها بتعدد القراءات والتأويلات؛ فيمكن أن تُدرس وفق النظريات القديمة والحديثة على حد سواء, ويُستخلص منها نتائج ناجعة؛ لأنها من أروع الفنون البلاغية في عصرها, وفيما سبقه من عصور.

الخاتمة

ولعل من المفيد هنا أنْ نذكر أنَّ أبرز النتائج التي تمخض عنها البحث, يمكن أنْ نجملها فيما يأتي:

- إنَّ مقامات الحريري من الفنون الأدبية السامقة, والزاخرة بالبلاغة والبيان؛ وهذا الأمر جعلها منهلاً نميراً لرواد الأدب وناقديه.
- مما تتماز به مقامات الحريري من فضل على سواها؛ هو ما تشتمل عليه من علامات سيميائية, وتراكيب لغوية نُظمت وفق اختيار وتوزيع فريدين, جعلا منها معينا لا ينضب وعبابا زاخرا .
- يمكن القول: إنَّ بلاغة المقامات وبعد أغوارها, وثرائها الدلالي؛ جعلوا منها أرضا خصبة ومجالا واسعا, من الممكن أن تُطَبّق عليه الغالبية العظمى من النظريات اللغوية والأدبية .
- إنَّ دراسة مقامات الحريري دراسة سيميائية ابتداءً بنظريات فلاديمير بروب وكلود بريمون, وانتهاءً بنظريات غريماس؛ ستتمخض لنا عن كتاب أو رسالة, يمثلان إضافة لا يُستهان بها للمكتبة الأدبية العربية.

المصادر والمراجع

ابن منظور, محمد بنُ مكرم بنِ علي, لسان العرب, ط3, دار صادر, بيروت_ لبنان, 1994م .

إيكو, أمبرتو, السيميائية وفلسفة اللغة, ترجمة: د. أحمد الصمعي, ط1, المنظمة العربية للترجمة, بيروت_ لبنان, 2005م .

تشاندلِر, دانيال, أسس السيميائية, ترجمة: د. طلال وهبة, ط1, المنظمة العربية للترجمة, بيروت_ لبنان, 2008م.

الحريري, القاسم بن علي, مقامات الحريري, دار بيروت للطباعة والنشر, بيروت_ لبنان, 1978م .

غارمادي, جولييت, اللسانة الاجتماعية, ترجمة: د. خليل أحمد خليل, ط1, دار الطليعة للطباعة والنشر, بيروت_ لبنان, 1990م .

غيرو, بيار, السيمياء, ترجمة: أنطوان أبي زيد, ط1, منشورات عويدات, بيروت_ لبنان, 1984م .

غيرو, بيار, علم الإشارة السيميولوجيا, ترجمة: منذر عياشي, ط1, دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر, دمشق_ سوريا, 1998م .

فرّوخ, عمر, الرسائل والمقامات, ط2, منشورات مكتبة منيمنة, بيروت_ لبنان, 2000م .

كورتيس, جوزيف, مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية, ترجمة: د. جمال حضري, ط1, منشورات الاختلاف, الجزائر_ الجزائر, 2007م .

لحمداني, حميد, بنية النص السردي, ط1, المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت_ لبنان, 1991م .

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687

مبارك, محمد زكي عبد السلام, النثر الفني في القرن الرابع الهجري, ط2, المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة_ مِصر, (د . ت) .
هامون, فيليب, سيميولوجيا الشخصيات الروائية, ترجمة: سعيد بنكراد, ط1, دار الحوار للنشر والتوزيع, اللاذقية_ سوريا, 2013م .

References

Al-Hamdani, Hamid. (1991). *The Structure of the Narrative Text*. Beirut, Lebanon: The Arab Cultural Center for Printing, Publishing, and Distribution.

Al-Hariri, Al-Qasim bin Ali. (1978). *Maqamat al-Hariri*. Beirut, Lebanon: Dar Beirut for Printing and Publishing.

Chandler, Daniel. (2008). *Foundations of Semiotics* (Translated by Dr. Talal Wahba). Beirut, Lebanon: The Arab Organization for Translation.

Courtés, Joseph. (2007). *Introduction to Narrative and Discursive Semiotics* (Translated by Dr. Jamal Hadari). Algiers, Algeria: Al-Ikhtilaf Publications.

Eco, Umberto. (2005). *Semiotics and the Philosophy of Language* (Translated by Dr. Ahmad Al-Sam'i). Beirut, Lebanon: The Arab Organization for Translation.

Farrukh, Omar. (2000). *Letters and Maqamat*. Beirut, Lebanon: Munaymina Library Publications.

Garmazi, Juliette. (1990). *Social Linguistics* (Translated by Dr. Khalil Ahmad Khalil). Beirut, Lebanon: Dar Al-Taliaa for Printing and Publishing.

Guiraud, Pierre. (1984). *Semiotics* (Translated by Antoine Abi Zeid). Beirut, Lebanon: Oueidat Publications.

Guiraud, Pierre. (1998). *The Science of Signs: Semiologie* (Translated by Munther Ayashi). Damascus, Syria: Tlas Publishing and Translation House.

Hamon, Philippe. (2013). *Semiology of Narrative Characters* (Translated by Said Benkrad). Latakia, Syria: Al-Hiwar Publishing and Distribution House.

Ibn Manzur, Muhammad ibn Mukarram ibn Ali. (1994). *Lisan al-Arab*. Beirut, Lebanon: Dar Sader.

Mubarak, Muhammad Zaki. (n.d.). *Artistic Prose in the Fourth Hijri Century*. Cairo, Egypt: The Grand Commercial Library.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.687